الجوانب السياسية والثقافية في سفارة محمد بن علي الخروبي 1552– 1554م

The Political and cultural aspects in the embassy of Muhammad bin Ali Al-Kharoubi 1552-1554

عامر شرقي طالب دكتوراه.

Ameur chergui PhD student

جامعة معسكر

University of Mascara

تاريخ الإرسال:2019/10/22 تاريخ القبول: 2020/12/09

ملخص:

اعتادت الدول عبر التاريخ على إرسال سفرات أو بعثات دبلوماسية إلى دول أخرى من أجل تمثيلها أو الدفاع عن مصالحها، أو من أجل التوصل إلى اتفاقيات أو معاهدات تنظم العلاقات بين تلك الدول.

وبحكم الجوار الجغرافي بين إيالة الجزائر العثمانية والدولة السعدية فقد قامت بينهما علاقات سياسية وعسكرية متأرجحة ما بين التوتر تارة والسلام تارة أخرى، وسوف نحاول من خلال هذا البحث أن نسلط الضوء على مظهر من تلك العلاقات السياسية والمتمثل في أول سفارة ما بين القوتين المتجاورتين وهي سفارة محمد بن علي الخروبي، التي كان لها أثار سياسية وأخرى ثقافية ما بين القطرين.

الكلمات المفتاحية: العلاقات السياسية، محمد بن علي الخروبي، العلاقات الجزائرية السعدية، الدولة السعدية، عبد الله الهبطي،

Abstract:

States have historically used to send diplomatic missions to other States to represent or defend their interests or to reach agreements or treaties regulating their relations.

And by virtue of the geographical proximity between the Algerian regency and the of, they have had political and military relations fluctuation between tension and sometimes peace. we will try through this research to shed light on the aspect of those political relations and the first embassy between the two neighboring forces, Ben Ali al-Kharoubi, who had political and cultural influences between the two countries.

key words: Political relations, Muhammad bin Ali al-Kharoubi, Saadianne state

الكلمات المفتاحية:

.

مقدّمة

بلغت العلاقات الجزائرية السعدية ذروة التوتر والصدام في منتصف القرن 16م، في ظل ظروف داخلية تميزت بوجود قوى مناوئة ومنافسة لسلطة العثمانيين في الجزائر ولسلطة السعديين في المغرب الأقصى، وظروف خارجية عرفت وجود الاحتلال الإسباني والبرتغال لعدة مدن على الشريط الساحلي للمغرب الإسلامي.

إن عدم استقرار الأوضاع السياسية عامة كان يثير مخاوف هاتين القوتين المتجاورتين، فكان لابد للطرفين من التوصل إلى تسوية سلمية لخلافاتهما أو تأجيلها إلى حين فروغهما من مشاكلهما الداخلية، فكانت المبادرة من قِبَلِ إيالة الجزائر، التي بعثت بأحد أبرز علمائها وهو الشيخ محمد بن علي الخروبي في مهمة دبلوماسية إلى البلاط السعدي من أجل حل المشاكل العالقة بين السلطتين.

قام محمد بن علي الخروبي بسفارتين إلى البلاط السعدي خلال السنتين 1552 / 1554، وإن ما يميز هذه السفارة هو أن صاحبها قد مزج ما بين المهام السياسية التي أوكلت له وبين مكانته كرجل دين، فحدث خلال تلك السفارة احتكاك ثقافي كبير بين الخروبي وعلماء المغرب الأقصى.

1. **التعريف بمحمد بن علي الخروبي:**

هو أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر ودفين خارجها[1]، ولد الخروبي في قراقيش على بعد 4 كلم غرب مدينة طرابلس، في حدود سنة 880هـ / 1475م[2].

تلقى الخروبي العلم في مسقط رأسه على يد الشيخ الحاج القاسم وعلى يد والده علي الخروبي ثم على يد الشيخ أحمد زروقي البرنوسي الفاسي[3]. وفي عام 916هـ/ 1510م هاجر الخروبي إلى الجزائر وهو تاريخ الغزو الجنوي لمدينة طرابلس[4].

استقر الخروبي في الجزائر حيث تولى التدريس والفتوى في جامعها الكبير، وأثناء إقامته بها أخذ العلم على عدد من شيوخها مثل : عمر العطاوي الراشدي عن عبد الجليل بن محمد الراشدي، أبو عبد الله ابن مرزوق، وابن زكريا المغراوي، وعبد الرحمان الثعالبي، وأخذ أيضا عن عمر ابن زيان المديوني عن محمد بن يوسف السنوسي عن ابراهيم التازي صاحب وهران عن محمد بن واضح الشلبي[5].

ترك الخروبي وراءه العديد من التصنيفات في مقدمتها: كفاية المريد و شرح تصلية القطب المعروفة بالصلاة المشيشية، ورسالة ذي الإفلاس إلى خواص أهل مدينة فاس[6].

وقد كان للخروبي مكانة مرموقة لدى أمراء بني عثمان، فاستعملوه في السفارة بينهم وبين محمد الشيخ السعدي، حيث ورد إلى المغرب مرتين[7].

توفي الخروبي في الجزائر عام 963هـ/ 1556م متأثرا بالوباء الكبير الذي أصاب البلاد[8].

2 . العلاقات الجزائرية السعدية قبل سقارة الخروبي (1549–1554م):

1.3. الحملة السعدية الأولى على تلمسان 1549–1551م:

شغلت مهمة السيطرة على تلمسان حيزا كبيرا من الصراع العثماني الإسباني، خاصة وأن ملوك بني زيان و تقلبوا في الولاء ما بين الطرفين. تضررت القبائل المجاورة لتلمسان كثيرا من الصراع والا استقرار الذي ميز المنطقة خاصة بعد أن منعها حكام الجزائر من المتاجرة مع الحاميات الإسبانية[9]. كل ذلك دفع العديد من القبائل في مملكة تلمسان وأعيانها إلى الاستعانة بالسعديين للتخلص من الفوضى التي كانت تعيشها تلمسان، وقد تزامنت هذه الدعوة مع دخول "محمد الشيخ" إلى فاس عام 1549م[10].

استغل "محمد الشيخ" دعوة التلمسانيين له من أجل مدّ نفوذه إلى المنطقة ومن أجل الحيلولة دون أن يتوغل العثمانيون أكثر نحو الغرب، فسارع لإعداد جيش قوامه 6 آلاف فارس أرسلهم إلى الشرق جهة تلمسان، فخضعت له العديد من القبائل أبرزها قبائل "ندرومة وطرارة وولهاصة" وغيرها من القبائل التي أعلنت تبعيتها للسعديين[11]، وفي الوقت الذي بلغت فيه القوات السعدية "بني يزناسن ووجدة" وحسب ما جاء في وثيقة إسبانية مؤرخة بـ 21أفريل 1549م، فقد كان ممثلون عن "محمد الشيخ" و عن الجزائر يتفاوضون في مستغانم حول تنسيق الجهود لمواجهة الإسبان في وهران، على أن يأخذ العثمانيون وهران ويضمّ السعديون تلمسان لملكهم، كما تذكر نفس الوثيقة أن حسن باشا أمر درغوث رايس قائد الأسطول العثماني بطرابلس بالتوجه غربا بسفنه لمهاجمة سواحل إسبانيا[12].

وفي خضم هذا التقارب الجزائري السعدي، قرّر "محمد الشيخ" تأجيل حملته على تلمسان بعد أن بلغه عزم البرتغاليين على الجلاء عن أصيلا والقصر الصغير[13]، كما أنه تخوف من احتمالية مساعدة الإسبان في مليلة لأبي حسون الوطاسي ضدّه[14].

في أوائل شهر ماي 1550 تجددت الأطماع التوسعية للسعديين في تلمسان حيث خرجت قواتهم من فاس باتجاه تلمسان[15] بقيادة "محمد الحران"[16] الابن الأكبر "لمحمد الشيخ"، وتمكنت من دخول المدينة في يوم الاثنين 23 جمادى الأولى 597هـ الموافق لـ 9 جوان 1550م[17] دون أي مقاومة تُذكر، وفي ظّل نشوة الانتصار قرر الحران أن يواصل حملته جهة الشرق، فتمكن من دخول مدينة مستغانم وطرد الحامية التركية الموجودة بها ، وبعد هذا الانتصار عاد الحران إلى فاس تاركا تلمسان تحت حكم أخيه[18] "عبد القادر"[19].

لم يكن حكام الجزائر –وعلى رأسهم البايلرباي "حسن بن خيرالدين"– راضين على سيطرة السعديين على مدينة تلمسان التي كانت تابعة لهم[20]، خاصة وأنّ السعديين واصلوا زحفهم إلى مستغانم، لذلك سارع

"حسن بن خيرالدين" إلى إعداد حملة لاسترجاع المدينة وطرد السعديين منها، وتولى "حسن قورصوا" مهمة قيادة الجيش الجزائري المتكوّن من 5 آلاف مقاتل تدعمهم قوات من القبائل، و ذلك في أوائل أوت 1550[21].

جاءت الحملة الجزائرية ضدّ السعديين في تلمسان بعد أشهر من مغادرة مولاي "محمد الحران" مع جزء كبير من قواته إلى المغرب الأقصى ، فهاجم "حسن قورصوا" [22] قلعة بني راشد وتمكن من إخضاعها وطرد أميرها "المنصور ابن أبي غانم"[23] الذي فرّ إلى تلمسان، وبعد هذا النصر وجّه "حسن قورصوا" قواته إلى مستغانم وتلمسان، وقد دفعت تحركات الجيش الجزائري "بعبد الله السعدي" –الابن الثالث "لمحمد الشيخ"– للاستنجاد بوالده الذي أمدّه بالمزيد من القوات[24].

وصلت القوات السعدية من فاس بقيادة "محمد الحران" وكان عددها 20 ألف ما بين فرسان ومشاة، ومعها 15 قطعة مدفعية في أوائل سبتمبر 1550م. وهو ما مكن من ترجيح كفة الجيش السعدي وإرغام "حسن قورصوا" على فكّ الحصار على مدينة تلمسان والتراجع بعد أن لاحقته القوات السعدية إلى حدود مستغانم[25].

لم تُثنِ الهزيمة التي تلقتها القوات الجزائرية أمام "محمد الحران" من عزيمة "حسن بن خير الدين"، الذي شرع في الإعداد لحملة أخرى أُوكِل قيادتها للقائد "صفا"[26]، وقد انضمت إلى هذه الحملة القبائل التي تضررت من الوجود السعدي، ورغم وصول المزيد من المساعدات السعدية إلى تلمسان والمقدرة بأربعة آلاف مقاتل[27]، إلا أنّ القوات الجزائرية قد تمكنت من إلحاق الهزيمة بالسعديين في معركة حاسمة في "بوعزون" قرب تلمسان وذلك في محرم 958هـ/ فبراير 1551م، أين انهزم الجيش السعدي وفقد ثلاثة أرباع مقاتليه[28]، وكان من بين القتلى "عبد القادر بن محمد الشيخ" وجرح كل من "عبد الرحمان" وأخيه "عبد الله" اللذيْنِ تمكنا من العودة بصعوبة إلى فاس بعد أن لاحقهم القائد "صفا" لمدة أربعة أيام إلى غاية "دبدو"[29].

بعد الانتصار على القوات السعدية تمكن القائد "صفا" من دخول مدينة تلمسان يوم 7 فيفري 1551م، وتم تعيينه قائدا عليها على رأس حامية قوامها 500 من الانكشارية[30]، وبذلك أصبحت تلمسان خاضعة للحكم العثماني. وكانت للحملة السعدية على تلمسان انعكاسات خطيرةن إذ أنها أكدت على شعبية "محمد الشيخ"، و القبول الكبير الذي لقيه من قبل قبائل المنطقة التي سارعت في الخضوع له.

إنّ قيام السعديين بمهاجمة تلمسان والأراضي الخاضعة للجزائر، قد وفّر لحكام الجزائر المبرر للتدخل في المغرب الأقصى، وأدّى انهزام السعديين في تلمسان وانسحابهم عنها إلى اضطراب الأوضاع في المغرب الأقصى، واندلاع العديد من التمردات والثورات، فثارت قبائل جبل الأطلس وتارودانت بسبب الضرائب[31]، كما ثار سكان تازة وفاس البالية، وراسلت بعض القبائل "أبا

حسون الوطاسي" تدعوه للخروج ضدّ السعديين، كما نجح "أمير دبدو عمار" بالعودة إلى إمارته[32].

أدركتْ الدولة العثمانية أنّه من غير المصلحة أنْ تفتح جبهة أخرى مع السعديين، لذلك عزلت "حسن باشا" وعينت مكانه "صالح رايس"[33]كبادرة منها لتحسين العلاقات مع السعديين[34].

2.3. دعم حكام الجزائر لأمير دبدو في المغرب الأقصى 1551م:

إنّ النصر الذي حققته القوات الجزائرية في تلمسان، لم يضع حدّاً للأطماع التوسعية "لمحمد الشيخ"، الذي أثبت مرة أخرى قوته بعد نجاحه في القضاء على التمردات التي ظهرت في مملكته عقب هزيمة قواته في تلمسان، إذ لم يكن من مصلحة حكام الجزائر قيام منافس قوي لهم على حدودهم الغربية، فقرروا العمل على إضعاف دولته من خلال دعم منافسي "محمد الشيخ".

تمثَّل أول تدخُّل لحكام الجزائر في المغرب الأقصى ضدّ السعديين في دعوتهم لأمير دبدو "الأمير عمار" للعودة إلى إمارته[35]، بعد أن ثار أهلها وقتلوا الوالي السعدي عليها، ففي رسالة مؤرخة في 17 فيفري 1551م أرسلها "القائد صفا" – القائد العثماني بتلمسان– إلى السلطات الإسبانية بمليلية يطلب منهم أن يبعثوا "بالأمير عمار" إلى دبدو[36] حتى يتم تنصيبه أميرا عليها وعلى تازا وفاس واعدا بتقديم المساعدة له، وفي رسالة أخرى بعث بها إلى "الأمير عمار" في نفس التاريخ أكد فيها أنه ليس هناك أحد غيره (أي الأمير عمار) أحق بمملكة فاس، طالبا منه بالتوجه على وجه السرعة لاستعادة ملكه بدبدو[37].

في الوقت الذي كان فيه "القائد صفا" يستميل "مولاي عمار" ويشجعه للعودة إلى مملكته، ليتخذ منه وسيلة للتدخل في المغرب وإضعاف سلطة السعديين، كان هذا الأمير من جهة أخرى يتعاون مع الإسبان ويشجعهم على أن يسبقوا الترك في احتلال مملكة فاس ومراكش قبلهم[38].

ورغم نجاح "الأمير عمار" في العودة إلى مملكته في أوائل مارس 1551م، إلا أن حكمه لها لم يدم طويلا، حيث تمكن "محمد الشيخ" من القضاء عليه ثانية في أكتوبر 1551، ليفر بعد ذلك الأمير عمار إلى الصحراء[39].

إنّ عدم تدخل حكام الجزائر لصالح "الأمير عمار" له العديد من التأويلات، في مقدِّمتها أنّ فترة عودة هذا الأمير إلى الحكم في دبدو تزامنت مع قيام السلطان العثماني بعزل "حسن بن خير الدين"، وذلك رغبة منه في إقامة السلام مع السعديين، كما أنّ تذبذب موقف "الأمير عمار" بين الإسبان والعثمانيين جعله يفقد كلا الطرفين لينتهي به الأمر بفقدانه لمملكته للمرة الثانية.

4. الجوانب السياسية في سفارة محمد بن علي الخروبي:

1.4. سفارة محمد بن علي الخروبي الأولى إلى فاس عام 1552م:

لجأت الدولة العثمانية إلى الخيار الدبلوماسي للتعامل مع السعديين من أجل تجنب الصدام معهم، خاصة وأن الأوضاع في الجزائر لم تكن مستقرة بعد، فلم يكن العثمانيون يرغبون في خوض حرب مجهولة العواقب مع السعديين، فبعد قيام السلطان "سليمان القانوني" بعزل بايلرباي الجزائر الحسن بن خير الدين وتنصيب مكانه صالح رايس[40]، أكدّ السلطان سليمان في رسالة وجهها "لمحمد الشيخ" يدعوه فيها على حُسنِ المجاورة مع الباشا الجديد فجاء في الرسالة ما نصه:" ولابد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة"، ويضيف قائلا:" ولذلك كتبنا إليكم منشورا يوجب مضمونه المصافاة ويشفي مكنونه أن تكون المودة في أقصى الغايات"[41]، ومن أجل الذهاب أبعد في هذا الخيار أرسل السلطان العثماني سفارة برئاسة الشيخ "محمد بن علي الخروبي" إلى "محمد الشيخ"، يعرض عليه عقد هدنة وتحديد الحدود بين المغرب الأقصى وإيالة الجزائر والدعوة إلى التعاون فيما بينهما وحسب وثيقة إسبانية مؤرخة في 1552/11/23م فإن السلام قد أبرم بينهما[42].

إن أغلب المصادر التاريخية لم تتطرق إلى مضمون هذا الاتفاق الذي يبقى محلا لتأويلات وتخمينات المؤرخين، لكن هناك ما يؤكد أن الطرفان قد توصلا فعلا إلى نوع من الوفاق. حيث نجد أن صالح رايس قد رفض –في نفس السنة– تقديم المساعدة لأبي حسون الوطاسي[43] من أجل استراجاع ملكه، كما أن الفترة الممتدة من أواخر سنة 1552م إلى مطلع سنة 1554م عرفت حالة من الاستقرار بين الطرفين، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأنه حقا قد كان هناك اتفاق بين الطرفين.

كما أن الظروف الداخلية للجزائر والدولة السعدية كانت عاملا حاسما في تشجيعهما على الاتفاق، فصالح رايس كان بحاجة إلى السلام من أجل مواجهة التمرد في مدينتي تقرت وورقلة بسبب رفضهما دفع الضرائب حيث وجه إليهما حملة في أوائل أكتوبر 1552، ورغم نجاحه في اخضاع المدينتين إلا أن خلاف قد نشب بينه وبين حليفه عبد العزيز أمير بني العباس[44]، ليتطور هذا الخلاف إلى عدة مواجهات عسكرية[45].

كذلك كان السعديون يعيشون أوقات عصيبة خاصة بعد الهزيمة التي تلقوها في تلمسان، فثارت ضدّهم قبائل الأطلس الكبير وشيوخ الريف، كما كان على محمد الشيخ أن يواجه مناوئيه كأبو حسون الوطاسي وأمير دبدو[46]، وأخيه أحمد الأعرج وابنه زيدان[47].

هذه الظروف المتشابه في البلدين قد شكلت عاملا حاسما في توصل الطرفان إلى هذا الاتفاق من أجل التفرغ لمواجهة التهديدات الداخلية.

وبالرغم من تمكن هذه السفارة في التوصل إلى اتفاق بين الطرفين حول الحدود والتعاون ضد المسيحيين إلا أن

هذا النجاح كان محدودا، حيث لم يوضح هذا الاتفاق نوع هذا التعاون أو كيفيته، كما أنه لم يُتبع بمراسلات أو سفارات توضحه أكثر وتمكن الحكام البلدين من تجسيده على أرض الواقع.

إضافة إلى ذلك فإن نجاح سفارة الخروبي من أول محاولة ليطرح لنا الكثير من التساؤلات، حول مدى جدية المفاوضات التي تمت بين الخروبي ومحمد الشيخ؟ وهل كان الخروبي يملك صلاحيات كبيرة أثناء التفاوض مع السعديين بحيث تغنيه عن الرجوع إلى بايلارباي الجزائر لأخذ رأيه بخصوص ما تم الاتفاق عليه؟

إن الاجابة عن هذه الأسئلة يبقى أمرا صعبا نظرا للغموض الكبير الذي يحيط بالجانب السياسي من سفارة الخروبي.

2.4. سفارة محمد بن علي الخروبي الثانية إلى مراكش[48] 1554م:

عادت العلاقات بين الجزائر والدولة السعدية للتوتر من جديد بعد أنّ هاجمت بعض القبائل المغربية إقليم تلمسان، وسواء كان هذا الهجوم بأمر من محمد الشيخ أو بدون علمه، فإنّه كان سببا كافيا لدفع "صالح رايس" لشنّ حملة على فاس خاصة في ظل الإغراء والتشجيع الذي لقيه من طرف أبي حسون الوطاسي[49]. حيث تمكن صالح رايس من دخول مدينة فاس في 9جانفي 1554م، ونصب أبي حسون الوطاسي أميرا عليها[50].

لم يدُم حكم أبي حسون الوطاسي طويلا على فاس، إذ سرعان ما أعدّ محمد الشيخ قواته لمهاجمة المدينة التي استرجعها بعد مقتل الأمير الوطاسي[51]، ليزحف بعد ذلك السلطان السعدي على فاس التي دخلها في 22 سبتمبر 1554م[52].

بانتصار محمد الشيخ في فاس، عادة الدولة السعدية لتشكل من جديد خطرا كبيرا على الحدود الغربية للجزائر[53]، خاصة وأن الحاكم السعدي راح يبحث عن حلفاء جدد يتقوى بهم ضدّ الجزائر[54].

حاول العثمانيون في الجزائر التقرب من محمد الشيخ من جديد لتجنب أي صراع مستقبلي، فأرسلوا إليه سفارة لتهنئته باسترجاع مدينة فاس من أبي حسون[55]، وإن كانت أغلب المصادر التاريخية لا تشير إلى اسم المبعوث العثماني، فإنها بلا شك سفارة محمد بن علي الخروبي الثانية إلى المغرب التي كانت بتاريخ 1554م / 961هـ[56]، حيث قام المبعوث العثماني بإبلاغ محمد الشيخ "بمكان عليه بنوا مرين معه –أي السلطان العثماني– من الهدايا والخدمة إليه، وأنه في نصرتهم وظهر ذلك في آخر ملوك دولتهم أبو حسون"[57]، وبرغم من أن السلطان السعدي قد أكرم ضيافة الخروبي "إلا أنه لم تظهر ثمرة لمقدمه"[58]، حيث كان جواب محمد الشيخ قويا فقال له :"سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان المغرب لا بدّ له أن ينازعك على عمل مصر ويكون قتاله معك عليه أن شاء الله ويأتيك إلى مصر

والسلام"[59]، وهذا ما يدفعنا إلى القول على أن سفارة الخروبي الثانية قد فشلت في تحقيق الغاية المرجوة منها.

5. البعد الثقافي في سفارة محمد بن علي الخروبي:

إن المهمة السياسية التي أوكلت للخروبي لم تصرفه عن مناقشة ومناظرة علماء المغرب، ففي سفارته الثانية إلى مراكش[60] عام 961هـ/ 1554م ، وجد الخروبي أن أصحاب الطريقة الجزولية يقصون شعر التائب فأنكر عليهم ذلك وقال :"إنه بدعة" فقالوا له:"إن الشيخ الجزولي كان يفعله"[61]، وحسب ما يذكر اليفريني في كتاب نزهة الحادي أن الخروبي قد أنكر "على سيدي أبي عمرو القسطلي قصّه لشعر الشارب وقال إنّه بدعة" ويضيف أنه "أنكر عليه مسايل كثيرة" دون أن يذكر هذه المسائل[62]، ونفهم من قول اليفريني :"فقالوا له أن الشيخ الجزولي كان يفعله"[63] أنه قد جرت بين الخروبي وبين أتباع الطريقة الجزولية في مراكش مناظرات ومجادلات وبلا شك أن شيخ الطريقة الجزولية الشيخ "أبي عمرو القسطيلي" كان حاضرا، ولعل التوتر السياسي بين السعديين والعثمانيين قد أثر على مجريات ونتيجة المناظرة، خاصة وأن الطريقة الجزولية كانت الطريقة الرسمية للدولة السعدية[64].

وعند عودة الخروبي إلى الجزائر كتب رسالتين وجّه إحداهما إلى الشيخ أبي عمرو القسطلي[65] وأتباعه و رسالة أخرى إلى علماء فاس سماها :"رسالة ذي الإفلاس إلى خواص مدينة فاس" ذكر فيها آدابا على القواعد الخمس[66].

أحدثت رسالة الخروبي اللاذعة والتي انتقد فيها وبشدة الشيخ القسطلي، شرخا واسعا بين علماء المغرب، حيث انقسموا بين مؤيد للقسطيلي وهم من أتباع الطريق الجزولية، وطرف ثاني مؤيد للخروبي وهم من أتباع الطريقة الزروقية.

ولم يتأخر القسطلي في الردّ على الخروبي فكتب له رسالة طويلة جاء فيها :"هذا أوان تتبع الرسالة الخروبية إلى ناحية الحضرة الروحانية"[67]

وكان الشيخ "أحمد بن أبي محلى" وهو من أتباع الشيخ "القسطيلي" من من تصدى للرد على رسالة "الخروبي"، حيث عثر بن ابي محلى على رسالة الخروبي سنة 1592 بمنطقة درعة، فقام بتفصيل القول فيها والردّ على ما ورد فيها من معاني تمس بالقسطلي[68].

كان "للخروبي" موقف آخر مع الشيخ "أبي عمرو القسطيلي" المراكشي بعد أن رأى تفسيرا له على القرآن الكريم بجزائر بني مزغنة، فأرسل له رسالة فذلك[69].

أما الرسالة الثانية والتي وجهها الخروبي إلى خواص مدينة فاس ، فقد انتقد فيها فقهاء المدينة، حيث ذكر في رسالته آدابا على القواعد الخمسة، وفي جملة ما تكلم به في ما يتعلق بآداب شهادة أن لا إله إلا الله[70].

اعترض علماء مدينة فاس على رسالة الخروبي في مقدمتهم الشيخ أبو محمد عبد الله الهبطي[71] (ت963هـ) الذي كتب إلى الخروبي "يلاطفه ويذكر له أن تلك الهفوة إنما طغا بها القلم"، ثم أرسل كتابه بداية إلى مفتي فاس الشيخ أبا عبد الله محمد بن أحمد اليسيتني. ولما اطلع اليسيتني على كتاب الهبطي اعترض على ذلك وكتب يخاطب الشيخ الخروبي ويشنع عليه[72]. وقد تطور الخلاف أكثر حول هذه المسألة بين الشيخ الهبطي الذي "كان بينه وبين اليسيتني منافسة ومناظرة في لا إله إلا الله"[73]، وانقسم علماء المغرب بين مؤيد "للهبطي" وآخرين موافقين لرأي اليسيتني[74]. ووصل الخلاف بين الشيخين أن دعاهما السلطان محمد الشيخ للفصل في القضية.

اغتنم محمد بن علي الخروبي فرصة وجوده في المغرب حيث "لقي المشايخ وأخذ عنهم"[75]، وهو نفسه قد أخذ عنه كثير من أهل المغرب كالشيخ أبو الحسن الأغصاوي[76]، هذا وأجاز الخروبي لبعض من علماء هذا القطر من أمثال: محمد بن يوسف الترغي ومحمد بن أحمد الحضري[77]، ويذكر أحمد بابا التنبكتي أنه قد تحصل على إجازة من قبل شيخه أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي على ما أجازه شيخه العريف الخروبي تلميذ زروق[78].

ويذكر صاحب كتاب "المرآة" أن الخروبي "ذهب إلى مراكش وخلّف خزانة من كتب العلم"[79] دون أن يذكر ما احتوته تلك الخزانة أو نوع الكتب التي تركها الخروبي، وأثناء وجوده في المغرب قام ابن الخروبي بشرح كتاب الصلاة المشيشية حيث جعله في كتاب سماه كفاية المريد وشرح تصلية القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش[80].

6.الخاتمة:

من خلال دراستنا لسفارة محمد بن علي الخروبي الأولى والثانية، انتهينا إلى مجموعة من الملاحظات والاستنتاجات نوجزها في ما يلي:

– إن الخروبي لم يدون لنا سفارته أو ما عاينه من أحداث ومشاهدات ولم يترك لنا تصنيفا يبين الشيوخ الذين قابلهم أثناء سفارته إلى البلاط السعدي.

– إن سفارة محمد بني علي الخروبي تمثل صورة حية عن أقوى مظاهر التواصل الثقافي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرن 16م، وهي علامة صحية على جهود علماء تلك الفترة في تدارس ما كان يطرأ عليهم من مسائل بغض النظر عن انتماءاتهم أو مذاهبهم.

– إن مجهودات الخروبي تبين لنا أن العلاقات الثقافية بين إيالة الجزائر والدولة السعدية لم تتأثر بالصراعات السياسية بين البلدين، كما أن حكام البلدين لم يحاولوا عرقلة أو التضييق على حركة العلماء بين القطرين ولا على حريتهم في إبداء أراءهم العلمية.

– إن ما يميز الخروبي أنه كان رجل دين بامتياز فهو لم يتولى أي مهمة سياسية أو عسكرية سابقة، لذلك فإن

سفارته قد كانت ناجحة بشكل كبير ثقافيا لكن تأثيرها السياسي كان جدّ محدودا.

7.قائمة المصادر والمراجع:

المختصرات:

- S.I.H.M : Les sources inédites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845, Première série- dynastie Saadienne 1530-1660.

[1] أبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، دراسة وتحقيق: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد، ص 280.

[2] El Mahdi Bouabdelli , Le cheikh Mohammed ibn Ali El Kharroubi , R.A., année 1952, P P 330-331.

[3] IBID. P 330.

[4] IBID, P 331.

[5] العباس بن ابراهيم السملالي ، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب ابن منصور، ج5، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1413هـ/1993م، ص 130. ينظر:

- El Mahdi Bouabdelli , OPCIT, P 332.

[6] محمد بن عسكر ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1397/ 1977، ص 126.

[7] العباس بن ابراهيم السملالي ، المصدر السابق، ص 130.

[8] El Mahdi Bouabdelli , OPCIT, P 338.
أما في الجذوة فقد ذكر أنه توفي عام 960هـ. ينظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ج1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص 93 .

[9] زهراء النظام، العلاقات المغربية الجزائرية مقاربة سياسية – ثقافية خلال القرن 10هـ/ 16م، دار الأمان، الرباط، 2015، ص 165.

[10] صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، ط2، الجزائر،2007، ص 72. عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر، 2008، ص 17.

[11] زهراء النظام، المرجع السابق، ص 167.

[12] De Castries, S.I.H.M, Série 1, Espagne, T 1, P247.

[13]لقد تم الجلاء البرتغالي عن مدينتي أصيلا في 30 جوان 1549م, وعن القصر الصغير بتاريخ 16 جوان 1550.يُنظر:
R.Ricard , S.I.H.M., ,T4 ,Op.cit., P P 339 - 350.

[14] De Castries, S.I.H.M., Espagne, T 1, Op.cit.,, P259.

[15] Ibid., P 411.

[16] هو محمد الحران أكبر أولاد محمد الشيخ كان يتقدم للحروب قاد الحلو السعدية الأولى على تلمسان لكنه مرض اثناء الحملة ليعود بعد ذلك إلى مراكش حيث توفي متأثرا بمرضه في سنة 959هـ. يُنظر: الوفراني، المصدر السابق، ص 37.

[17] De Castries, S.I.H.M., Espagne, T 1, Op.cit., P416.

[18]دييكودي طوريس، تاريخ الشرفاء، تر: محمد حجي و محمد الأخضر، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ص 169.

[19] هو ثاني أولاد محمد الشيخ قتل أثناء مهاجمة القوات الجزائرية لمدينة تلمسان (سنة 1551م) فقطع رأسه وجعل

في طرف رمح: يُنظر: دييوكو دي طوريس، المصدر السابق، ص 174.

[20] كانت تلمسان تحت حكم مولاي الحسن بن عبد الله الزياني الذي عينه بايلرباي الجزائر حاكما على المدينة في أكتوبر 1548م يُنظر:

De Castries, S.I.H.M., Espagne, T 1, Op.cit.,, P441 (la marche).

[21] Ibid., P 454.

[22] من جزيرة كورسكا هو إنكشاري عين حاكما للجزائر بالنيابة بعد موت صالح رايس سنة 963. قتله محمد تكرلي في نفس السنة. يُنظر: المكي جلول، مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من 631 إلى 1263هـ / 1234 إلى 1847م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1993، ص 87 (الهامش).

[23] محمد أو أحمد صهر الملك الزياني، كان له دور كبير في التحالف الزياني الإسباني ضد العثمانيين سنة 940هـ، وفي مشروع التحالف السعدي الإسباني سنة 962 –965هـ . يُنظر: المكي جلول، المرجع السابق، ص 85 (الهامش).

[24] De Castries, S.I.H.M., Espagne, T 1, Op.cit., P458.

[25] Ibid., P 471.

[26] القائد صفا تركي الأصل من بلاد الأناضول كان يتمتع بثقة حسن بن خيرالدين والسلطان العثماني، حيث كلف بالقيام بالسفارة الأولى إلى محمد الشيخ في سنة 1546م، وكلفه حسن بن خير الدين بقيادة هذه الحملة ثم بخلافته في نهاية 1551م. عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 188.

[27] De Castries, S.I.H.M., Espagne, T 1, Op.cit., P500.

[28] عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 173، 174.

[29] De Castries, S.I.H.M., Espagne, T 1, Op.cit., P P 530,534.

[30] زهراء النظام، المرجع السابق، ص 181. لقد تم تعيين أحد أفراد الأسرة الزيانية وهو الأمير عامر بن عبد الله الزياني الذي كان قد لجأ إلى تلمسان عقب دخول السعديين لها حاكما على تلمسان تحت وصاية الجزائر لكن سرعان ما تم عزله في جويلية 1551 وبذلك تمّ القضاء على الدولة الزيانية، يُنظر: عمار بن خروف، المرجع السابق،ج1، ص 174.

[31] دييكو دي طوريس، المصدر السابق، ص 171، 178.

[32] De Castries, S.I.H.M., Espagne, T 1, Op.cit., P548.

[33] لا يعرف تماما متى ولد صالح رايس أو متى أسر، إلا أنه كان من رجال البحر إلى جانب الإخوة بربروس، عين بايلرباي على الجزائر في أواخر أفريل 1552م. يُنظر: عبد العزيز سامح إلتر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1989، ص 184.

[34] لقد بعث السلطان العثماني برسالة إلى محمد الشيخ بخصوص عزل الحسن بن خير الدين جاء فيها أنه :"لم يحسن المجاورة مع جيرانه، ومال إلى جانب العنف والاعتساف، ونبذ وراءه طرق الوفاق والائتلاف ". يُنظر: عمار بن خروف، المرجع السابق،ج1، ص 172.

[35] كان هذا الأمير أحد المتضررين من الحلمة السعدية على تلمسان حيث أخضع السعديون مملكته، بينما فرّ هو وحاشيته إلى الإسبان بمليلة التي وصلها بتاريخ 12 جويلية 1550م. يُنظر:

De Castries, S.I.H.M., Espagne, T 1, Op.cit., P423.

[36] مدينة في إقليم فاس، على منحدر جبل شاهق يسكنها فع من قبيلة زناتة، وكانت تخضع لحكم قبيلة بني ورتاجن. يُنظر: حسن الوزان، وصف افريقية ، ج 1، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت لبنان، 1983، ص 351.

[37] De Castries, S.I.H.M., Espagne, T1. ,Op.cit, P P 535 ,536.

[38] Ibid., P 540.

[39] Ibid., P P 547-611- 615.

[40] لا يعرف تماما متى ولد صالح رايس أو متى أسر، إلا أنه كان من رجال البحر إلى جانب الإخوة بربروس، عين بايلرباي على الجزائر في أواخر أفريل 1552م. يُنظر: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص 184.

[41] زهراء النظام، المرجع السابق، ص 187، 188.

[42] R.Ricard, S.I.H.M. , Espagne,T 2, P 44-49.

[43] أبو الحسن علي بمن محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحي بن زيان الوطاسي ويعرف بأبي حسون البادسي، بويع بفاس سنة 932هـ ثم خلعه ابن أخيه أحمد بن محمد البرتغالي في نفس السنة، وبعد سقوط فاس بيد السعديين فرّ إلى الإسبان ثم البرتغال ثم إلى العثمانيين في الجزائر بحثا عن المساعدة، قتله محمد الشيخ السعدي في 961هـ يُنظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى،ج4، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ص 149 – 161.

[44] هو عبد العزيز أمقران أمير بني العباس استغل انشغال صالح رايس بحملته على فاس فتمكن من تحقيق انتصارات على الحاميات العثمانية حتى أصبح سيد الحضنة والبيبان. يُنظر: صالح عباد، المرجع السابق، ص 75. وعمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 185.

[45] صالح عباد، المرجع السابق، ص 74– 75.

[46] هو الأمير عمار كان أحد المتضررين من الحلمة السعدية على تلمسان حيث أخضع السعديون مملكته، بينما فرّ هو وحاشيته إلى الإسبان بمليلة التي وصلها بتاريخ 12 جويلية 1550م. يُنظر:

De Castries, S.I.H.M., Espagne, T1, Op.cit., P423.

[47] عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 174.

[48] قام محمد الشيخ بنقل عاصمة دولته من مدينة فاس إلى مدينة مراكش ليتجنب تهديدات الجزائر. ينظر: عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص194.

[49] D.Haëdo, Histoire des Rois d'Alger, TR : H.D.de Grammont, ED: Grand-Alger-Livres, Alger, 2004 , P 96.

[50] De Castries, S.I.H.M. , France ,T1, Op.cit., P 155.

[51] عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص 192.

[52] De Castries, S.I.H.M. , France ,T1, Op.cit., P 155.

[53] عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 186.

[54] إذ طلب "محمد الشيخ" من الإسبان بأن يزودوه بـ 10 آلاف جندي مجهزين بالبنادق من أجل السيطرة على الجزائر مقابل منحهم بعض التنازلات. للمزيد يُنظر:

R.Ricard, S.I.H.M. , T 2, Op.cit., P 213.

[55] عمار بن خروف، المرجع السابق،ج1، ص 194.

[56] El Mahdi Bouabdelli , OPCIT, P 334.

[57] مجهول، الدولة السعدية التكمدارتية، تح: عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، ط1، مراكش، 1994، ص 30-31.

[58] الناصري، الاستقصاء، ج5، ص 27.

[59] مجهول، المصدر السابق، ص 30-31.

[60] اليفريني محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله المراكشي ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تصحيح: هوداس، مدينة آنجي، 1888، ص42.

[61] العباس ابن ابراهيم السملالي، المصدر السابق، ص 129.

[62] اليفريني، المصدر السابق، ص 42.

[63] نفسه، ص 42.

[64] محمد إدريس طيب، الأذكار السنية بالمدرسة الزروقية ،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 43.

[65] اليفريني، المصدر السابق، ص 42.

[66] ابن عسكر، المصدر السابق، ص 9.

[67] زهراء النظام، المرجع السابق، ص 455. لقد أوردت زهراء النظام مقتطفات من رسالتي الخروبي والقسطلي. يُنظر الصفحات: 454-455- 456.

[68] نفسه، ص 456 (الهامش). ينظر لمقتطفات من ردّ ابن أبي محلى على الخروبي في الصفحات: 456-457.

[69] أحمد ابن القاضي، جذوة الاقتباس بذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص 322.

[70] ابن عسكر، المصدر السابق، ص 9.

[71] عبد الله بن محمد بن علي الهبطي الولي الصالح الصوفي، كان عالما بالبيان والمنطق والجدل والرياضيات، ولد سنة 805هـ وتوفي عام 968هـ. ينظر: ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج3، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة، ص 60. أما في كتاب جذوة الاقتباس فقد ذكر ابن القاضي أن عبد الله الهبطي قد توفي عام 963هـ، ينظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس...، المصدر السابق، ص 441.

[72] ابن عسكر، المصدر السابق ، ص 9.

[73] ابن القاضي، جذوة الاقتباس... المصدر السابق، ص 441.

[74] ابن عسكر، المصدر السابق، ص 9، 10.

[75] نفسه، ص 127.

[76] نفسه، ص 127.

[77] ابن القاضي، جذوة الاقتباس... المصدر السابق، ص 322.

[78] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحرير وتقديم: ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 118.

[79] العباس ابن ابراهيم السملالي، المصدر السابق، ص 130.

[80] ابن عسكر، المصدر السابق، ص 127.